

القوط والأمبراطورية الرومانية

حتى نهاية القرن الرابع للميلاد

أصل القوط — موطنهم — هجرتهم إلى البحر الأسود في القرن الثاني الميلادي — احتكاكهم بالأمبراطورية الرومانية — إنقسامهم إلى شرقيين وغربيين — القوط الغربيون في ذا كيا ووصول المسيحية إليهم على يد أوليفلاس القوطي — القوط الغربيون والأمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي .

* * *

يعتبر عنصر القوط (Goths) أعظم قبائل الجرمان الشرقيين إطلاقاً ، فهم أكثرهم عدداً وأشدهم خطراً على أوروبا ، عبروا كأغلب أقرانهم من اسكندناوة ، منذ الزمن السحيق ، وذلك قبل القرن الرابع قبل الميلاد^(١) ، واستقروا عند مصبات الأودر والفيستولا حاليين محل الروجيين والوندال ، ويحتمل أن وصول القوط قد أدى إل تحرك القبائل الجرمانية الأخرى نحو الغرب^(٢) .

وقد ذكر بتياس (Pythias) الرحالة الأغرقي المرسيلي القديم ، وهو من معاصري الاسكندر المقدوني ، أن هناك شعباً يعرف باسم القوط (Guttones^(٣)) يقيم فيما هو بروسيا الشرقية الحالية أي في الركن الجنوبي

(١) Painter, p. 21; Moss, p. 44.

(٢) Lot, p. 75

(٣) ذكر اسم القوط بأشكال مختلفة منها : Gothones , Gotenes ; وكلمة Guttones ترادف الكلمة القوطية (Gut - Thinda) بمعنى الشعب القوطي .

Hodgkin, I, p. 34

الشرقي من ساحل البحر البلطي وحول خليجان داننرج الحالية ، ويعمل هذا الشعب في تجارة العنبر الذي يجمعه من سواحل البحر (١) . وكان بتياس قد قام برحلة عام ٣٤٥ ق.م ولم يسمع عن هذا الشعب بأكثر من هذه العبارة لمدة أربعة قرون بعد ذلك . ويؤكد المؤرخ الروماني القديم بليني Pliny المتوفى عام ٧٩ م ؛ بأن هؤلاء لم يزالوا يقيمون حيث هم في أيامه ، كما أن تا كيتوس (Tacitus) أعظم مؤرخي الرومان والمتوفى حوالي عام ١١٧ م ، أورد أسم القوط (Gothones) في معرض حديثه عن الجرمان وقال في الكتيب الذي وضعه عن جرمانيا (Germania) بأن نظام الملكية قام ونما بين القوط أكثر من غيرهم من العناصر الجرمانية (٢) .

وموطن هؤلاء القوط الأصلي هو شبه جزيرة اسكندنافيا في السويد بصفة خاصة ، وكانت تعرف باسم جزيرة سكاتزيا او جزيرة سكين (Scanzia) (٣) وظلوا فترة من الزمن في المنطقة المعروفة باسم (Gothiscandia أو Gothland) جنوب السويد ، ثم عبروا إلى الساحل الأوربي (٤) ، ورغم أن هذه المنطقة قد عرفت باسم العنصر المعروف باسم جوتر (Gauter) إلا أن هذا العنصر الأخير قريب الشبه من القوط بما يحمل على الظن بأن الاسمين لمسمى واحد ، كذلك يدل اسم جزيرة جوثلاند (Gothland) (٥) في البحر البلطي ، على أن القوط أقاموا فيها فترة أو كانوا يسكنونها ، وكانت قديما تعرف باسم جوثلاند (Gutland) وبما ورد في الأغاني (Sagas) الشمالية ، وأشعار الأنجلوسكسون ، أن شبه جزيرة جوثلاند (Jutland)

(١) Tacitus, P. 339 ; Mommsen, III, p. 480 ; Eoucelle, p. 5.

(٢) Tacitus, p. 336 ; Bradley, p. 1 — 2 ; Hodgkin, I, p. 34 ; Encycl. Brit., Art. "G. ths"

(٣) Taylor, pp. 102—10 ; Hodgkin, I, p. 33

(٤) Deanesly, p. 26

(٥) تقع هذه الجزيرة بين خطي عرض ٥٧° ، ٥٨° شمالاً وتنحصر حالياً بالسويد .

كانت قديما (موطننا لفرع من القوط يعرف باسم *Hereth-Gothi* أو *Reidhgotar*^(١)) .

* * *

وعندما وصلت جموع القوط إلى الساحل الأوربي ، استقروا قرب بومرانيا الشرقية حيث هزموا العناصر المقيمة بها والمعروفة باسم (*Ulmerugi*) كما هزموا جيرانهم الوندال والرومانيين ، وبعد فترة من الزمن هاجروا إلى سكيثيا (*Scythia*) واستقروا في المنطقة التي أطلقوا عليها اسم أيوم (*Oium*) شمالي البحر الأسود في حوض نهر الدنيبر . وكان ذلك خلال الصف الثاني من القرن الثاني الميلادي تقريبا^(٢) .

ومن القبائل التي صحبت القوط في هجرتهم ، وربما كانت خاضعة لهم أو مرتبطة بهم بحلف أو معاهدة ، قبائل الهيروليين *Heruli* ، والسكرين (*Scirians*) ، والتونكيلين (*Tuncilingi*) والجيداي (*Gepidae*)^(٣) . ويبدو أن هذه القبائل كانت أقرب إلى القوط من غيرها من فروع التوتون^(٤) .

والملاحظ أن الرومان قد خطوا بين القوط وشعب آخر يعرف باسم الجيتين (*Getae*) كان يسكن شمالي مصبات الدانوب ، إذ حدث على عهد الإمبراطور أغسطس (٣٠ ق.م - ١٤ م) ، أن نبى الشاعر أوفيد (*Ovid*) حيث عاش وسط ذلك الشعب ، وحين وصل القوط إلى هذه المنطقة في القرن

(١) Bradley, pp. 7—8.

(٢) *Encycl. Brit.* ; Hodgkin, I, pp. 10—11

(٣) هناك رواية نقلها جوردين (*Jordanes*) المؤرخ القوطي في القرن السادس الميلادي ، — ربما عن الأساطير والأغاني القديمة — مؤداهما أن القوط حين انتقلهم إلى الساحل الأوربي ، كانوا يركبون في ثلاث سفن بقيادة ملك بريج (*Berig*) ، وحدث أن وصلت إحدى السفن متأخرة لثقل حمولتها ، ولهذا التأخر عرف ركاب هذه السفينة باسم (*Gepids*) من الكلمة القوطية : (*Gepanta*) بمعنى البطيء . (*Hodgkin, I, pp. 33, 40; Lav. et Ram. I, p. 49*)

(٤) Bradley, p. 8.

الثالث الميلادي ، اختلطوا بالعنصر القديم ، ومن هنا اختلط على الرومان أن الإسمين تسمى واحد حتى صاروا يطلقون اسم القدماء على الغزاة الجدد ، ولهذا أشباه في التاريخ كأطلاق اسم البريطانيين القدماء مثلا (Britones) على الغزاة الجدد من الأنجلوساكسون ، ووقع في هذا الخلط كذلك جوردان المؤرخ القوطي ، لأنه قرأ ما كتبه الرومان عن هذا الشعب ، والصواب أن الشعبين مختلفان جنسا ولغة^(١) . ومنذ انتقال القوط إلى شواطئ البحر الأسود دخل الكثير منهم طوعا في خدمة الإمبراطورية الرومانية في الشرق ، فمثلا نجد أن منهم من عمل بوابا أو بناء أو ساقيا^(٢) .

ولم يكذب ياتي عام ٢١٤ م حتى كان القوط قد انتشروا حول شواطئ البحر الأسود الشمالية ، ووجدوا أنفسهم لأول مرة ونجها لوجه مع الإمبراطورية الرومانية ، وذلك على عهد الإمبراطور كراكال (Caracalla - ٢١٢ - ٢١٧)^(٣) . ولما كان شأن هذه القبائل البدوية النقلة والاعتداء على المناطق الغنية ، نزولا على ما طبعوا عليه من الجفوة والغلظة وحب المغامرات ، ثم لحاجتهم للعيش بأية وسيلة ، فقد بدأت اغاراتهم^(٤) ، إلا أن الرومان ، وقد استشعروا خطرهم الدائم^(٥) ، حالفوهم حوالي عام ٢٢٥ م ، وقرروا لهم جعلا (Stipendia) سنويا نظير قيام القوط على حماية حدود الإمبراطورية ضد السارمات^(٦) (Sarmats) وهم البرابرة الذين يقيمون فيما وراء القوط . غير أنه حدث على عهد الإمبراطور فيليب (٢٤٤ - ٢٤٩) ، أن قطع هذا الجعل فعبير أوستروجوتا (Ostrogotha أو Austraguta)

(١) Gibbon, II, p. 342 Bradley, p. 19 ; Hodgkin, I, N. A., pp. 98—100

(٢) Lav. et Ramb., I, p. 56.

(٣) Encycl. Britt. ; Hodgkin, I, p. 43.

(٤) Deanesly, P. 26.

(٥) Cam. Med. Hist I, p. 39.

(٦) Hodgkin, I, p. 49.

ملك القوط (١). ويدل اسم هذا الملك على أن فرع القوط الشرقيين كان قد تولى قيادة هذه الحملة . عبر استراجوتا نهر الدانوب ونهب ولايتي مويسيا (Moesia) على الشاطئ الجنوبي للدانوب وتراقيا . وقام القائد الروماني الساتور دكيوس ، الذي صار امبراطورا فيما بعد ؛ على رأس جيش لدفعهم ، غرأى القوط ألا قبل لهم بمداخلة الرومان فانسحبوا في هدوء وعادوا من حيث أتوا وعبروا الدانوب ، ويقال إن عددا كبيرا من الجنود الرومان قد انضم إلى القوط وحرصوا على هجوم آخر بسبب تحقير دكيوس لهم ورميهم بالأهمال والتقاعد حتى طرد عددا كبيرا من جنوده لأنهم في نظره غير جديرين باسم الجنود (٢) . وحينئذ تشجع ملك القوط وأرسل قوة بقيادة قائدين قوطيين هما : أرجيث Argith وجوتاريك (Guntharic) ؛ استطاع هذا الجيش أن ينهب بعض أجزاء من ولاية مويسيا ، بل حاصر عاصمتها مدينة مارقيان (Marcianopolis) (٣) ولم يجد سكانها بدا من مفاوضة القوط لرفع الحصار نظير دفع مبلغ كبير من المال فعاد القوط إلى أراضيهم (٤)

ويبتدىء تاريخ القوط المحقق حوالي هذا العهد ؛ فقد تأسست الامبراطورية القوطية المترامية الأطراف جنوب روسيا وشمال البحر الأسود ، وفيها يجرى نهر دنيستر ، ويجاورهم من ناحية الشمال الغربي عنصر الفن (Finna) ومن الشرق الآلان (Alans) الفرس ، ولكن يلاحظ

(١) الملك استراجوتا أو أوستروجوتا أول ملوك أسرة الأمالين (Amalings) وهي الأسرة الشهيرة التي انحدر منها ملوك القوط الغربيين ، وهذه الأسرة شهيرة واسعة في الحروب وهي سبيلة بطل ظفر بلقب (Amala) أي العظيم ؛ ولقد برهن الملك أوستراجوتا على أنه جدير بحمل لقب أسرته ، فاشتهر بدوره بشدة مراسه في الحرب وحبره فيها حتى لقب « بالصبور » ؛ توفي عام ٢٥٠ م . وأبرز سلالة أسرة الأمالين الملك لومانيك الذي امتصر عام ٢٧٥ م . (Lav. et Ramb., I, b. 49)؛ انظر مايلي س ١١ ، ١٨ و Bradley, pp. 13, 43; Hodgkin, I, pp. 43, 76—77.

(٢) Hodgkin, I, p. 49.

(٣) شيد الامبراطور تراجان هذه المدينة تذكارا لأخته مارجيا Marcia .

(٤) Hodgkin, I, p. 50 ' Bradley, pp 54 - 26.

على هذه الإمبراطورية أنها كانت مفككة غير متماسكة الأجزاء^(١) ، وبهذا الوضع أخذ القوط يلحون في قرع بلاد الإمبراطورية الرومانية فتحركوا عام ٢٥٠ م بعد أن مروا على الحرب بالفرسان الثقيلة ، وتابعوا تخريبهم في بلاد البلقان بقيادة ملكهم كنيوا أو كنيفا (*Kniva* و *Coiva*)^(٢) وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة فيليب (*Philippopolis*)^(٣) حيث استمات الإمبراطور دكيوس في الدفاع عنها ، وظل يحارب حتى قتل هو وابنه في الحرب عام ٢٥١ م في وقعة دبروجه (*Abritus*) ، وفشل خليفته على العرش الإمبراطوري تربونيانوس جالوس (*Trebonianus Gallus*) في دفعهم فسلم لهم بالاستيلاء على البلاد التي فتحوها كما تعهد لهم بدفع جزية سنوية نظير عدم اعتدائهم^(٤) . غير أن الفوضى الحزبية التي تلت هذه الحرب ، في بلاد الإمبراطورية ، قد تركت الميدان خاليا تحت رحمة البرابرة ، وعجز الإمبراطور فالريان (٢٥٣ - ٢٦٠) عن القيام بأي عمل فعال ، نظرا لانشغاله في الحرب ضد الفرس في أطراف آسيا الصغرى ، إذ حدث أن استولى الفرس على أرمينية وانطاكيا ، ولكنهم هزموا هزيمة شنعاء قرب الرها عام ٢٥٩ / ٢٦٠ م . وخلال هذه الفترة كان القوط قد استأنفوا غزواتهم ، فاستولوا على القرم ، وعبروا البحر الأسود و ضربوا مدينة طرابزوند على ساحله الجنوبي ، بل أمعنوا في اغتالهم في بلاد الإمبراطورية و ضربوا خلقدونية ونيقوميديا وغيرها ثم عبروا إلى أثينا ونهبوها ٢٦٧ م وجمعوا ما في مكتباتها من كتب ، وأوشكوا أن يحرقوها ، لولا أن أحد عقلائهم نصح قومه بترك هذه الكتب ليتلهم بها الأغر يق عن الانشغال في الحرب^(٥) . كان ذلك على عهد الإمبراطور جاليانوس

(١) Deacsly, pp 27 - 76 Boiss, pp 8 - 9.

(٢) ليس هذا الملك من سلاة الملك السابق .

(٣) Hodgkin, I, pp. 52—35.

(٤) Deanesly, p.26 ؛ Lot p. 35 ؛ Bradley, pp. 26—9.

(٥) Bradley, pp. 31—33.

Gallianus (٢٦٠ - ٢٦٨) . وبعد مقتل جاليانوس على يد الحشاشين استطاع خليفته وهو الامبراطور كلوديوس الثاني Claudius - (٢٦٨ - ٢٧٠) اليانوني ، أن يهاجم القوط وأخلافهم من الباستارن والجبداي والهيرولين عندما كانوا يخرجون في مدن موعيسيا . وفي وقعة حربية عنيفة قرب نيسس Naissus وهي نيش في صربيا العليا - عام ٢٦٩م ، لقي القوط صدمة عنيفة ، خسروا فيها نحو خمسين ألف من رجالهم ، ومن أجل هذا الظفر لقب الإمبراطور كلوديوس بقاهر القوط - Gothicus - ومع هذا ، فلم يستطع خلف كلوديوس وهو أورليان Aurelian (٢٧٠ - ٢٧٥) أن يتابع الزحف ، حقيقة انتصر على القوط ولكن انتصاره لم يكن حاسما ، وخسر كثيرا كما أن القوط أنفسهم قاسوا الكثير بسبب الحرب ، فتهيأت الأحوال من الجانبين للواقعة على عقد هدنة ومعاهدة ، منح القوط بمقتضاها مقاطعة داكيا (Dacia)^(١) وتشمل ما هو ترانسلفانيا الحالية والجزء الغربي من المجر وغربي ولاشيا^(٢) ، وفي نظير ذلك يتعهد القوط بامداد الجيش الروماني بفرقة من الفرسان القوط قوامها ألفا فارس . ثم إن الإمبراطور أخذ عددا من أبناء وبنات الأسر النبيلة القوطية كضمان لولاء القوط أو رهينة لينشأوا تنشئة رومانية في رعاية الإمبراطور ، وبعد ذلك عين بعض شباب القوط في مناصب عليا بالقصر الإمبراطوري وزوج عددا من بنات القوط من كبار ضباطه . بهذا الارتباط أضحى القوط محالفين ومحافظين على المعاهدة لمدة نصف قرن تقريبا ، حيث استفادوا من حياة السلم في داكيا وتأثروا بالحضارة الرومانية أكثر من أشقائهم الشرقيين المنتشرين في وديان ليتوانيا الواسعة وجنوب روسيا^(٣) .

وفي فترة الخمسين عاما منذ عهد أورليان ، كان تاريخ القوط فيها غير

(١) أضيفت هذه الولاية على عهد الامبراطور تراجان .

(٢) Gibbon, I pp. 372-74, Courcelle, p. 10 ; Hodgkin, I, pp. 5-6

(٣) Hodgkin, I, pp. 69-70, 73-4; Bradley, pp. 34-7.

واضح . وأول خروج لهم بعد انقضاء هذه الفترة كان عام ٣٢٢ م ضد الإمبراطور قسطنطين الأكبر فهزمهم وأخضعهم حتى أنهم ساعدوه في السنة التالية ضد منافسه ليكنيوس ، وقاد القوط في هذه الحرب ملوكهم ، مثل أرياريك وأيوريك Ariaric, Aoric^(١) . وبعد ثماني سنوات حاربهم قسطنطين مرة أخرى وانتصر عليهم فطلب القوط مهادنتهم وعقدت محالفة ظل القوط بعدها نحو ٣٠ سنة لا يقلقون أمن الإمبراطورية^(٢) . على أنه حتى ذلك الوقت لم يكن العنصر القوطي قد هاجر بأعداد ضخمة إلى البلقان ، فلم تزل هناك إمبراطوريتهم الواسعة جنوب روسيا...^(٣)

* * *

وعن انقسام القوط إلى شرقيين وغربيين ، فالمعروف أنهم منذ مطلع القرن الثالث الميلادي ، وهم على شواطئ البحر الأسود الشمالية كانوا قد انقسموا إلى فرعين كبيرين هما . القوط الشرقيون (Grentungs أو Grentungi والقوط الغربيون (Thervings أو Tervingi) . أقام الأولون شرقى نهر دنيستر بينما استقر الآخرون في غربه ، ولا تعنى هذه التسمية سوى دلالتها على الوضع الجغرافي لهذين الفرعين^(٤) ، ولو أن من المؤرخين من أضاف إلى هذا التمييز المكاني تميزاً معنوياً آخر ، فيفسر كلمة (Greuthungi أو Grentungs) التي صارت فيما بعد (Ostrogoths) بمعنى القوط اللامعين من الكلمة (Austr) بمعنى اللامع ، وكلمة (Thervingi أو Tervingi) وهي التي عرفت فيما بعد باسم (Visigoths) بمعنى القوط العقلاء أو الراشدين^(٥) . ومهما كان التمييز بين الفرعين فالثابت أن الحد

(١) Hodgkin, I, pp. 71 — 74

(٢) C. M.ed. H., I, p. 39 ' Bradley, pp. 40—41 ' Lot, P.P.35-6.

(٣) Hodgkin, I, p. 71 ; Deanesly, pp. 26—7

(٤) C. M.ed. H., I, p. 39 ' Moss, p. 44 ; Lav. et Ramb. I

p. 49. Bradley, p. 5.

(٥) Hodgkin, I, pp. 100—102; Lot, p. 50

الفاصل بين عنصرى القوط هو نهر دنيستر (Thyras) . والثابت كذلك أن القوط بشطريهم ظلوا يعملون معا ، كما وضح من الأحداث السابقة وأن العنصر الغالب في الفريق الذى احتك بالإمبراطورية الرومانية كان من القوط الغربيين ، ولو أن الجميع يخضعون لسيادة عليا واحدة هي سيادة ملك القوط الشرقيين . ثم إن الغربيين هم الذين عقدوا المعاهدة مع الإمبراطور أورليان ، واستقروا بمقتضاها في منطقة داكيا ، وهم الذين خرجوا على عهد قسطنطين الباك وحاربوه وانهزموا أمامه فعقدوا معه معاهدة ولكن من نتيجة الإقامة الطويلة في ولاية داكيا — وتقدير بنحو مائة سنة من ٢٥٠ إلى ٣٥٠ م — أن الشقة قد اتسعت بين فرعى القوط (١) . ومن عجيب الصدف أن هذا التمييز الجغرافى بين فرعى القوط ، ظل واضحا حتى بعد تكوين دول القوط فيما بعد ، فكان القوط الغربيون في تولوز في الغرب بينما كان القوط الشرقيون ، إما في المجر أو في إيطاليا أى شرقى أشقائهم (٢) .

ظل القوط الغربيون يخضعون لسيادة أشقائهم الشرقيين فترة طويلة ، وكان الشرقيون قد كونوا لهم إمبراطورية متسعة بلغت ذروة مجدها واتساعها خلال القرن الرابع الميلادى وذلك على عهد ملكها إرمانريك (Ermanoric أو هرمانريك Hermanric) الذى ولى العرش عام ٣٥٠ م وهو سليل أسرة الأماليين (٣) . شملت هذه الإمبراطورية ما هو أوكرانيا الحالية تقريبا ، ولبعد صيت هذا الملك شبه جوردين مؤرخ القوط ، بالإسكندر المقدونى ، وقالوا عنه أنه إسكندر القوط الشرقيين : (٤) . ورغم

(١) Bradley, p. 38 ' Deânesly, p. 26 ; Hodgkin, I, p. 74.

(٢) Hodgkin, I p. 73

(٣) انظر ما سبق ص ٥ حاشية ر .

(٤) قامت امبراطورية القوط الشرقيين على حساب عنصر السارمات الأيراني الذى كان قد حل قبل ذلك محل السكيثيين (Scythians) الأيرانيين ، شمال الدانوب حتى نهر دنيستر ؛ وذلك منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، فانحاز السكيثيون إلى الأطراف عند نهر الدن (Tanais) =

خضوع القوط الغربيين لسيادة إرمانريك ، فإنهم كانوا مستقلين من الناحية العملية ، يرأس كل قبيلة من قبائلهم حاكم أو قاض ، من أنفسهم ، نظرا لأنه لم تكن لهم رئاسة موحدة ، وإن اعترفوا جميعا - ولو نظريا بالسيادة العليا لملك القوط الشرقيين (١) .

* * *

وفي داكيا وصلت المسيحية إلى القوط الغربيين وكذلك إلى بعض الشرقيين في أوكرانيا (٢) على يد المبشر القوطي أوليفيلاس Ulphilas (٣١١ - ٣٨٠ م) (٣) . يرجع هذا المبشر إلى أسرة يونانية الأصل كانت تقيم في إقليم قبادوقيا بآسيا الصغرى ، حيث وقع جده القبادوقى أسيرا في يد القوط حين غزوا آسيا الصغرى ونهبوها عام ٢٦٧ م (٤) . ولد أوليفيلاس في المنطقة التي كان يقيم بها القوط حوالي عام ٣١٠ أو ٣١١ م ، وأسماه أبواه إسما قوطيا ونشأ على النظام القوطي ، وعلى أثر هزيمة القوط أمام الإمبراطور قنسطنطين الأكبر ، عقدت محالفة بينهم وبين الإمبراطورية البيزنطية عام ٣٢٢ م ، وقدم أوليفيلاس ضمن السفارة القوطية إلى القسطنطينية لمفاوضة الإمبراطور قنسطنطين في شروط الصلح ، وكانت مهمته في هذه السفارة القيام بالترجمة ، إذ كان يجيد الإغريقية بجانب القوطية ، وربما كان سبب مجيئه إلى بيزنطة أمرا آخر غير هذه السفارة ، فقد قيل

« وإلى شبه جزيرة القرم أمام السارمات ، توالى غزوات السارمات حتى القرن الأول الميلادي » وعند ما جاء القوط ، لجأ السارمات إلى بلاد الإمبراطورية ، الرومانية (Bradley, pp. 30 39, 'C. Med. H. IV, 'p. 76 ; Hodgkin, I, pp. 50-52 ; Lot, pp. 44-44 ; pp. 183-4.

(١) Hodgkin, I, pp. 100-102 ; Bradley, pp. 39, 43-6.

(٢) Lecl. p. 170.

(٣) كتب اسم أوليفيلاس بأوضاع مختلفة لكنها متقاربة : Ulphilas ، Wulfila ، 'Wulfila' ، ومعنى هذه التسمية ، كما تدل عليه اللفظة الأخيرة ، « الذئب الصغير » (Lav. et Ramb., L, 'p. 59)

(٤) انظر ما سبق ص ٧ .

إنه كان من ضمن الرهائن الذين بقوا في بيزنطة لضمان تنفيذ المعاهدة .
وأيا كان سبب وجوده بالقسطنطينية ، فإن أوليفلاس أقام بهذه المدينة
فترة من الزمن حيث تعلم وتتقف بالثقافة الإغريقية كإدرس اللاتينية^(١) .

ولكن أوليفلاس قام بدور يشبه إلى حد ما ما قام به النبي موسى عليه
السلام ، فرغم أن موسى تعلم حكمة المصريين وتربى في بلاط فرعون ، فإنه
عمل على إنقاذ قومه وهدايتهم إذ لم يقبل أن يعيش رافها مهديا وقومه
في ضلال وبؤس ، ولسنا نعلم بالضبط ، هل كان أوليفلاس يعتقد المسيحية
قبل وصوله إلى القسطنطينية أم لا ، والمؤكد أن المسيحية كانت قد وصلت
إلى نهر قليل من القوط قبل عهد أوليفلاس ، وأن أوليفلاس تحمس
للمسيحية ورغب أن يكون رسولها بين قومه . ثم صار قسيسا في بيزنطة
(Reader or Rector) عام ٣٤١ وحين بلغ سن الثلاثين قرر مجمع إنطاكية
الديني بإرشاد ايزوب Eusebius (٢٦٠ - ٣٤٠ م^(٢)) ، رئيس الحزب
المعارض للطريق الإسكندري أثناسيوس ، تعيين أوليفلاس أسقفا
ومبشرا بين القوط المقيمين شمالي الدانوب^(٣) .

ظل أوليفلاس نحو سبع سنوات (٣٤١ - ٣٤٨ م) ينشر المسيحية
بين القوط في إقليم داكيا حيث كثر أتباعه رغم اضطهاد ملكهم أثاناريك
للمسيحية ، ولما اشتد اضطهاده كتب أوليفلاس إلى الإمبراطور قنسطنطين
(٣٣٧ - ٣٦١ م) يطلب منه أن يمنح القوط وطنا داخل الإمبراطورية
للخلاص من هذا الاضطهاد ، فاستجاب له الإمبراطور ، وجاء أوليفلاس
مع بضعة آلاف من القوط المسيحيين وعبروا الدانوب واستقروا قرب
نيقوبوليس في موءيسيا عند سفح جبال البلقان . وكان قنسطنطين معجبا

(١) Hodgkin, I, pp. 80-81 ؛ Bradley, P, 57

(٢) Barker (B) Alex. to Constantine, pp. 472-80

(٣) Bradley, pp. 47-8 ؛ Lot, p. 38 ؛ Deanesly, pp. 26-27

Hodgkin, I, p. 81 ؛ Lav. et Ramb., I, p. 60

بأوليفلاس ويتحدث عنه دائماً باسم (نينا موسى الثاني Our Second Mose) ظل هذا الفريق الموادع من القوط المسيحيين يقيمون في تلك المنطقة عدة قرون في هدوء، يزرعون أرضهم ولا يشتركون في الحروب العنيفة التي تدور حولهم، ونظراً لبعده صيت أوليفلاس في مهمة التبشير صار يعرف باسم رسول القوط أو حوارى القوط - (Apostle of the Goths) كما أطلق عليه جوردين (Jordanes) المؤرخ القوطي في القرن السادس الميلادي : القسيس والمطران^(١).

ويلاحظ أن جميع القوط المسيحيين لم يغادروا دacia مع أوليفلاس، بل بقي عدد كبير منهم، وازداد عدد المسيحيين بالتدريج، حتى أنه حوالى عام ٣٦٩م قرر أثناريك اتخاذ اجراءات اضطهادية ضدهم، ولا سيما وأن منافسة فريتجرن^(٢)، كان مسيحياً أو يميل إلى المسيحيين، ولما غادر أثناريك البلاد وذهب إلى مرتفعات ترانسلفانيا، لم تكن هناك ثمة مقاومة في سبيل انتشار المسيحية، وفي سنوات قليلة تحول جميع القوط الغربيين والشرقيين على السواء إلى المسيحية^(٣).

كانت المسيحية التي اعتنقها أوليفلاس ونشرها بين القوط، على المذهب الأريوسى نسبة إلى أريوس (Arius) الاسكندري (ت ٣٣٦م) الذي كان أول من أثار الجدل حول طبيعة المسيح^(٤)، وقرر بأن المسيح وأن اتصف بالالوهية إلا أنه مخلوق بأمر الآله الأب وهو لذلك أقل مرتبة منه، ورغم ما ظفرت به هذه العقيدة من تأييد وخطوات رسمية بسبب تعضيد

(١) Deanesly, pp.26—7؛ Pirenne (H.) P. 25 Hadrill, P.23؛ Hodgkin, I, p. 83.

(٢) عن أثناريك وفريتجرن انظر ما يلي ص ١٩ .

(٣) Hodgkin, I, p. 81؛ Bradley, p. 58.

(٤) عين أريوس قسماً في الاسكندرية عام ٣٠٢م، ولا أظهر دعوته نفاه البطريق أثناسيوس - Bacycl. of Ethics & Religion. Vol. I. Art. Arianism.

الأسقف إيزوب - مستشار الإمبراطور قسطنطين الأكبر - فإن مجمع نيقيا قد استبكرها في المجمع المسكوني الذي عقد عام ٣٢٣ م (١) .

أما نتائج اعتناق القوط للنبسحية الأريوسية من الوجهة السياسية ، فلم تظهر إلا فيما بعد ، وحسبنا أن نقول إن الأريوسية كانت كريمة للأمبراطورية البيزنطية والكاثوليكية الرومانية ، وأعماق الأثر في تفكك الدول الجرمانية التي دانت بها ، من الاختلاف الجنسي أو الثقافي أو الحضاري بين الرومان والبرابرة .

على أن أهم ما قام به أوليفلاس خلال تبشيره بالمسيحية هو ترجمة الإنجيل إلى اللغة القوطية التي يجيدها ، وتدريب عدد من القوط ليخلفوه في مهمته الدينية . قضى جزءاً كبيراً من حياته في ترجمة الإنجيل ، وكان للقوط حروف أبجدية وكتابة بلغتهم ، لكنه كتب هذه الترجمة القوطية بحروف اغريقية كبيرة كما كان المؤلف في كتابة الكتب حينئذ ؛ وفي حالة الأصوات القوطية التي يصعب التعبير عنها بالحروف الاغريقية ، عبّر عنها أوليفلاس في ترجمته بالحروف القوطية ، مع تغيير أشكالها حتى تبدو متفقة إلى حد كبير مع الحروف الاغريقية (٢) .

وأقدم مخطوط للإنجيل المترجم إلى القوطية ، كتب بعد أوليفلاس بنحو ١٥٠ سنة ؛ ويحتمل أن أشكال الحروف قد تغيرت قليلاً قبل هذا الوقت ، ولكن من السهل أن نرى الحروف الأبجدية القوطية هي نفس الحروف الأبجدية الاغريقية تقريباً مع إضافة ستة حروف جدد (٣) .

(١) راجع فيشر (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز) ج ١ ص ١٧-١٨ ، Thomson, I, pp. 90-2 ; Hodgkin, I, p. 60 ; Lav. et Ramb., I, p. 54 ; Davis, p. 22.

(٢) Hodgkin, I, pp. 84-86 ; Bradly, p. 61.

(٣) Hodgkin, I, pp. 84-5.

وتعتبر ترجمة أوليفلاس للإنجيل ترجمة جيدة بالنسبة للعصر الذي عملت فيه عخين لم يكن من السهل في القرن الرابع ، على قوطى أن يجيد الإغريقية لدرجة تمكنه من فهم نصوص الإنجيل . والترجمة الدقيقة من لغة إلى أخرى تقتضى عقلية رشيدة دربت على التفكير الدقيق ؛ غير أنه توجد فقرات قليلة لم يستطع أوليفلاس أن يوضح فيها المعنى المقصود من أصل النص ، فكثير من الكلمات التي وردت بالإنجيل ليس لها مقابل في اللغة القوطية نظراً لأنها تشير إلى أشياء أو حوادث تتعلق بالحياة الحضرية ، أو تشير إلى أفكار وآراء تمت إلى طرق التفكير المسيحية ، وهذه جد غريبة على عقول الوثنيين . ولكي يتغلب أوليفلاس على هذه الصعوبة ، كان يترجم مثلاً كلمة كتابة (Writing) في الإنجيل الأصلي إلى كلمة تدل على معنى الرسم أو التصوير أو الإشارة (Painting or marking) في اللغة القوطية ، وكلمة القراءة (Reading) إلى ما يدل على معنى الغناء (Singing)^(١) .

وليس من المعروف على وجه الدقة مقدار ما ترجمه أوليفلاس من الإنجيل . ذكر بعض المؤرخين القدماء أن أوليفلاس ترجم الإنجيل كله ما عدا سفر الملوك (Book of Kings) الذي تركه عمداً لأنه يعتقد أن قصص حروب بني إسرائيل من الخطورة قراءتها عند قوم تغلب عليهم النزعة الحربية^(٢) ، ولذا خشي من تأثير هذه الحروب على عقول القوط . ويناقض هذا أن سفرى يوشع (Joshua) والقضاء (Judges) اللذين ترجمهما ، ربما كان لهما من الأثر في إشعال الروح الحربية والرغبة في الحرب أكثر مما يؤدي إليه سفر الملوك . ويحتمل أن هذا التفسير الذي ذهب إليه المؤرخ القديم غير صحيح ، والراجح أن أوليفلاس مات قبل أن يتم ترجمة الإنجيل^(٣) .

(١) Bradley, p. 62.

(٢) Lāv: ēr Rāmō., I, p. 60.

(٣) اكتشفت أم نسخة من ترجمة أوليفلاس في القرن السادس عشر الميلادى في دير =

أما نهاية أوليفلاس ، فكانت بالقسطنطينية ، حين زارها عام ٣٨١ م بدعوة من الإمبراطور تيودسيوس الكبير ، وعند وصوله إلى العاصمة الإمبراطورية ، مرض ومات ، وكان تلميذه الذي خلفه في مهمته هو أ.كسنتيوس (Auxentius^(١)) .

هكذا كان انتشار المسيحية الأريوسية بين القوط . أما كيف اتخذ الغربيون لهم طريقا مستقلا عن أشقائهم الشرقيين ، فلم يحدث هذا إلا بعد انحلال إمبراطورية القوط الشرقيين ، ومع ذلك فقد ظل التعاون والارتباط بينهما بشكل ما ، حتى بعد تأسيس دولة القوط .

تخطت إمبراطورية القوط الشرقيين على يد الهون من المغول إذ أتاحت جموعهم الكاسحة حوالي عام ٣٧٠ م بقيادة ملكهم الخان بالامبر (Balamber) وحطموا في طريقهم إمبراطورية الآلان الإيرانية التي كانت تمتد من جبال الأورال حتى جبال القوقاز ، وفي قلب آسيا حتى بحر آرال^(٢) ولما عجز أرمانريك — أسكندر القوط الشرقيين — عن رده هذه الموجة المدمرة ، انتحر عام ٣٧٥ م بعد أن عمّر قرنا من الزمان .

ومن ثم انهارت إمبراطوريته الواسعة ، فتفرق القوط الشرقيون إلى وحدات أربع :

== بمدينة فردن (Werden) ، وتناوت هذه النسخة أيدي كثيرة ، حتى اشتراها السكونت حولا جاردى (De La Gardie) السويدي ودفن ثمنا غالبا عبارة عن كمية كبيرة من الفضة ، ولما عرفت هذه النسخة باسم الكتاب القضي أو المجموعة الفضية (Codex Argenteus) وهذه النسخة محفوظة الآن في مكتبة جامعة ابسالا (Upsala) ، وتعد من أهم ما تحويه مكتبات أوروبا ، فهي مكتوبة بحروف من ذهب وفضة على رق من الجلد القرهزى . أكتشفت نسخة أخرى من هذه المخطوطة في القرن السابع عشر بألمانيا ، أما بقية النسخ الست ، فقد اكتشفت في إيطاليا منذ نحو قرن . (Bradley, p. 64) .

(١) Hodgkin, I, pp. 86—89^٢ Bradley, pp. 63—4

(٢) تقيم بقايا عنصر الآلان اليوم — ويسمىهم العرب الآن — وسط جبال القوقاز

ويعرفون باسم الأوسيتيين (Ossètes) وهم عنصر أشقر ذو فامة متوسطة Lot, p.52

• Lav .et Ram. I, pm.59

١ - فريق لم يقبل الخضوع لسيادة الهون وهاجر بقيادة سافراكس والاثيوس (Safrax و Alatheus) ومعهما صبي يسمى (Wideric) وهو من الأسرة الآمالية الشهيرة . انتخبوه ملكا عليهم وتوجهوا غربا إلى الدانوب ، حيث انضموا إلى القوط الغربيين الذين كانوا قد سبقوهم (١) .

٢ - فريق توجه إلى شبه جزيرة القوم وهو الذي أطلق عليه كتاب يزنطة القوط الأغر يق : Gotho - Grecs (٢) .

٣ - فريق ثالث ظل يبلاده وانتخب له ملكا هو (Winitbari أو Winthaharyis) حفيد أخي أرمانريك ، وهذا الفريق ثأر حاول طرد الهون وقاموا بتخريب بعض البلاد الخاضعة للهون وارتكبوا كثيرا من الفظائع (٣) .

٤ - فريق رابع لم يتبرم بسيادة الهون وملك هذا الفريق هنيمند (Hunimund) ابن أرمانريك ؛ ظل هذا الفريق يعترف بسلطة الهون بل حارب في جانبهم ضد الفريق الثأر (٤) .

أما مصير القوط الغربيين الذين كانوا خلال النصف الأخير من القرن الرابع الميلادي جزءا من الإمبراطورية القوطية الشرقية ، ومن رعايا أرمانريك فإنه

(١) Pirenne (H.), p. 26 : Lot, pp. 58—59 Byre, p. 58

(٢) Lot, p. 58

(٣) كان حفيد الملك ونيشاري هو الذي تولى الملك على الفريق الرابع المسلم للهون ، حوالي عام ٤٤٠ م ، وذلك ياذن من ملك الهون . واسم هذا الحفيد ولامر Walamer غير انه لم يلبث أن خرج على الهون حين ضعف أمرهم بعد موت ملكهم أثيلا عام ٤٥٣ م واستطاع أن يهزم الهون . وكان له اخوان أشركهما في الحكم هما : ودومر وتيودمر Widumer و Theudemer وفي يوم النصر على الهون أنجب الأخ الأخير تيودمر ولدا هو تيودريك الذي اشتهر أمره فيما بعد وصار ملكا على إيطاليا وأعظم ملوك القوط طابطة Bradley, pp. 48—9

(٤) Bradley, p. 47

منذ وضع خطير الهون وبدأ هجومهم وثاربت الشعوب الخاضعة للقوط الشرقيين، منح إرمانريك رعاياه من القوط الغربيين مزيدا من الاستقلال وحرية العمل، فسمح لهم بتدبير جميع شؤونهم بأنفسهم حتى في المسائل الخارجية كإبرام المعاهدات أو شن الحروب، من غير ضرورة لأخذ موافقة الملك، وكانوا حيثئذ ينقسمون إلى ثلاث قبائل على رأس كل قبيلة رئيس أو قاض (Judex) وهؤلاء القضاة هم الأخرى الثلاثة (١). أثناريك وفريتجرن والوى (Alawiw Fritigern, Athanaric) وكان أثناريك أقوى الثلاثة، ويبدو أن الاثنين الآخرين قد سلماه بنوع من الرئاسة العليا (٢). بذل أثناريك جهدا كبيرا محاولا طرد الهون ولكنه فشل (٣).

ورغم ما عرف عن أثناريك من الشجاعة وقوة المراس في الحرب، إلا أن شهرته ارتبطت بالخداع والمكر أكثر من ارتباطها بالشجاعة. ورغب مخلصا في المحافظة على سياسة أبيه في مخالفة الرومان (٤)، غير أنه ارتكب غلطة كلفته وقومه ثمنا غاليا، ذلك أن بروكيوس (٥) أحد أقرباء الإمبراطور فالنس (٣٦٤-٣٧٨) قد خرج عليه وتمكن من طرده من العاصمة والاستيلاء على عرش الإمبراطورية فترة من الزمن، طلب هذا المعتصب مساعداً جريئة من القوط الغربيين، بمقتضى المعاهدة المعقودة معهم، فأرسل أثناريك وأرسل إلى تراقيا قوة قوامها نحو ٣٠ ألف مقاتل، اعترافا منه بالأمر الواقع، والملاحظ أنه لم يقصد الجيش بنفسه، إيفاء للقسم

(١) Lav. et Ramb. I, p. 61

(٢) Bradley, p. ٩0.

(٣) Deapésly, p. 26

(٤) الإشارة هنا إلى روتستر أبي أثناريك الذى عرف باختلاسه وولائه لرومان حتى أنهم أطلقوا له تمثالا بالقسطنطينية.

(٥) بروكيوس سليل أسرة نبيلة من قيليقيا (Cilicia) بآسيا الصغرى، اشتهر في الحملات المدنية والعسكرية على السواء، وهم أخيرا بثورة انتهت بانتزاع العرش لفترة معينة (Hodgkin, I, Pp. 139-144).

للذي قيل أن أياه استصدره منه قبيل وفاته ، ويقضى هذا القسم بالآ يقود
أبنة جيشا ضد الرومان . وفي عودة هذه القوة القوطية خربت في طريقها
ولايات تراقيا ونهبتها بموافقه الامبراطور القائم ، وحينئذ وقع عالم يكن
في الحسبان ، إذا جاءت الأنباء بمقتل بروكيوس عام ٣٦٩ م وعودة فالنس
إلى عرشه (١) . وبدلا من أن يكف القوط عن نهبهم ويطلبوا الصلح
من فالنس ، تمادوا في تخريبهم ، فلم يكن هناك بد من العمل على إيقاف هذا
النهب ، وتمكنت الجيوش الامبراطورية من قطع الطريق على القوط ومنع
وصول التموين إليهم كما حالت دون عودتهم إلى الدانوب ، وضيق عليهم
الحصار حتى أجبرتهم على التسليم من غير قيد أو شرط لم يقتلهم الرومان
وإنما استرقوهم وباعوهم كما سجنوا قوادهم في أما كن نائية . وعندما وصلت
أنباء هذه الكارثة إلى أثانريك بعث بسفرائه إلى القسطنطينية لا لطلب الصلح
والمغفرة بتواضع وصراحة ، بل ادعى سلامة النية وأن كل ما فعله القوط
الغربيون إنما هو إيفاء بشروط المعاهدة المعقودة بينهم وبين الرومان ،
وإستدلوا على سلامة النية والسذاجة بمساعدتهم للامبراطور الذي اتضح أنه
كان دعيًا ومن ثم طالبوا بإطلاق سراح أسراهم . اقتنع فالنس وكاد يصفح ،
غير أنه حين استشار أخاه فالنتينان (٣٦٤ - ٣٧٥) امبراطور القسم
الغربي من الامبراطورية ، نصحه بسرعة الهجوم على أثانريك في بلاده
دا كيا (٢) .

لبي فالنس نصح أخيه وحارب القوط الغربيين لمدة ثلاث سنوات وانتصر
في أكثر المواقع ، ولكنه لم يكن اتصلا حاسما وانتهت الحرب بالصلح ،
ووافق أثانريك المخادع على أن يقطع الجمل الذي كان يتقاضاه زعماء القوط
من الرومان بشرط اعتراف الرومان به ملكا على جميع القوط ، ورأى
فالنس أن تعدل الشروط عن طريق المقابلة الشخصية مع سيد القوط الذي

Ibid, p. 156. (١)

Bradley, pp. 52—3. (٢)

ندا محترما في نظره ، فاعتذر أثناريك عن استحالة انتقاله عبر الدانوب بمقتضى القسم الذى أخذه أبوه عليه بالألا يعبر الدانوب ويطأ أرض الرومان^(١) وفى نفس الوقت هدد باعتبار المعاهدة منقوضة إذا أدخل فالنس أرض القوط فى دا كيا ، واقترح أن تتم المقابلة فى زورق وسط نهر الدانوب ؛ وهنا نجد بعض الطرافة فى أن أثناريك تحاشى التعرض أو الإشارة إلى كل ما يدل على اعترافه بهزيمة أمام الرومان ، ولا بد أن فالنس قد شعر بأن البربرى يسخر منه واكنه لم يجرؤ على رفض الترتيب المقترح ، ووقعت المعاهدة وأخذ الطرفان رهائن لضمان تنفيذها ، ومن ثم عاد فالنس ودخل عاصمته دخول الظافر فى احتفال مهيب ، حيث نعتة الخطباء بأنه « قاهر القوط الثانى^(٢) » .

شغل أثناريك بعد ذلك فى اضطهاد المسيحيين الذين كثروا بين رعاياه^(٣) كما انشغل فى حرب ضد منافسه فريتجرن^(٤) ، ولم يكد يأتى عام ٣٧٦ م حتى أنهى قضاة القوط أو زعمائهم ما بينهم من منافسة ونزاع ، ولما كان أثناريك هو المتولى للقيادة العامة لجيش القوط جميعهم ، فقد فوجيء وهو على غربى نهر الدنيستر بعبور الهون على ظهور خيولهم ومهاجمتهم له ، فلم يستطع الثبات أمامهم وفر ، وحينئذ أرسل زعيم القوط الاخران : فريتجرن وألوى ، فى طلب الإذن من الإمبراطور فالنس ، لعبور نهر الدانوب ، إذ لم يعد باستطاعة القوط المقام فى دا كيا التى هددتها جموع الهون العنيفة ، وعبثا حاول أثناريك فى حمل قومه المدبرين على مقاومة الهون ، ولذا رحل مع فرقة من جيشه نحو مرتفعات ترانسلفانيا فى الشمال الغربى ، واختفى عن مسرح الحوادث نحو أربع سنوات

(١) انظر ما يلى ص ٣٣ .

(٢) Bradley, P. 54.

(٣) Hodgkin, I, pp., 177.

(٤) Ibid, p. 183.

أو خمس (١) . وفي خلال هذه الفترة أضحي منافسه فريتجرن الملك الفعلي للقوط (٢) .

انتظر القوط الغرييون الاذن من فالنس لعبور الدانوب ، فرارا من خطر الهون المهدق ، والذي يقترب منهم يوما بعد يوم ، وكان فالنس في أنطاكيا مشغولا بحرب الفرس (٣) ، حين استقبال قضاة القوط من قبل فريتجرن ، وشرح له هؤلاء القضاة مدى خطورة الهون ووعده بأن يكونوا من رعاياه المخلصين إذا منحهم وطنا في تراقيا عبر الدانوب ، وكان لا بد من الإجابة بنعم أولا في ذلك الظرف الدقيق ، ليس هناك فرصة للتردد أو المشاورة ، تردد بعض مستشاري فالنس في السماح لهم لما قد يكون هناك من آثار سيئة قد لا تكون واضحة في ذلك الوقت ، على حين أن البعض الآخر رأى أن هناك فائدة كبرى في الإذن لهؤلاء ، وذلك لحاجة الإمبراطورية إلى الرجال ، وهذه فرصة سانحة لإضافة نحو مليون من الرعايا في لحظة عين ، انتهى الأمر بالموافقة ، وصدرت الأوامر إلى حكام الرومان عند الدانوب بعمل ما يلزم لنقل القوط عبر النهر ، وسرعان ما جمعت القوارب وبدأ النهر يمتلئ بأعدادهم الزاخرة ، المتحرقة للعبور أمام خطر الهون ، حتى أن بعضا منهم قد غرق في النهر لشدة الازدحام ولعل في هذا ما يشبه تزاحم أهل بغداد على عبور الدجلة أمام خطر المغول في القرن الثالث عشر فيما بعد ، استمروا يعبرون النهر عدة أيام أمام حملة الجماهير وحراس الحدود ، وعبر القوط بنسائهم وأطفالهم وسائمتهم ، ولما كانت القوارب غير كافية أمام هذه الجموع الكثيفة ، فقد استخدمت الألواح الخشبية السميكة والقوارب المنفوخة وكذلك البراميل ، وقد حاول الرومان تعدادهم أثناء العبور فلم يتمكنوا ، فهذا شعب بأكمله يهاجر ، كان

(١) انظر ما يلي ص ٣٣ .

(٢) Bradley, p. 550

(٣) Pirenne (H.), p. 26 ; Lot, pp. 59

ذلك في ربيع عام ٣٧٦م واستقروا بموافقة فالنس في منطقة دورستورم Durostorum — وهي سيلستريا في موميسيا السفلى أو بلغاريا الحديثة كما أن فريتجرن عين قائدا في الجيش الروماني حتى يشعر زعيم القوط بأن له صفة رسمية في الإمبراطورية^(١).

لم يكفد القوط الغربيون يستقر بهم المقام كعاهدين في هذه المنطقة حتى بدأوا يتبرمون من سوء المعاملة التي لقوها على أيدي الرومان ، ولا سيما وقد جاءتهم الأنباء بأن أطفالهم سوف ينتزعون منهم كرهائن ، ويوضعون في أماكن تائية بالإمبراطورية ، لأن الرومان رأوا اتخاذ مثل هذا التدبير لكي يحملوا القوط على الهدوء وعدم الاخلال بأمن الإمبراطورية .
وحيث بدأ القوط يفكرون في الانتقام حين نفذ هذا التدبير والواقع إن هذا التنفيذ لم يكن سوى إيفاء بالشروط التي فرضت على القوط نظير السماح لهم بعبور الدانوب^(٢) . على أن فالنس سرعان ما اكتشف خلطته الكبرى في السماح لهم بالإقامة في قلب الإمبراطورية ، فرأى اتخاذ إجراء آخر ليأمن شرهم ، وهو أنه أمر بتجريد الرعايا الجدد من سلاحهم ، إلا أن ثروة القوط التي جمعوها من منهباتهم السابقة مكنتهم من رشوة الموظفين الرومان حتى تركوا لهم أسلحتهم ، كذلك أمر الإمبراطور بتوزيع القوط في فرق مختلفة وفي جهات متباعدة .

وفي هذا الوقت وصل فريق القوط الشرقيين الذي لم يقبل الخضوع لسيادة الهون ، وصل بقيادة سافرا كس والاثيوس ، وعند الدانوب التمسوا الإذن من فالنس للسماح لهم بعبور النهر ومنحهم ملجأ ، فرفض الإمبراطور حتى لا تضاعف مشاكلكه ، غير أن القوط الشرقيين لم يستجيبوا

(١) Bury, I, p. 104 ; Lot, p. 59 ; Hodgkin, I, P. 245 ; Pirenne (١)
(H.), pp. 26—27

Hodgkin, I, p. 253. (٢)

لهذا الرفض ، وعبروا الدانواب من أما كن خالية من الحراسة ، وتابعوا أسيرهم لينضموا إلى أشقائهم الغربيين (١) .

ورغم التوصيات الصادرة من الإمبراطور فالنس بحسن معاملة القوط وعدم التغالي في بيع المواد الغذائية اللازمة لهؤلاء المعاهدين ، حتى يتمكنوا من الزراعة والإنتاج ، فإن تصرفات الحكام الرومان كانت لسوء النظم الوقود المباشر لإثارة القوط ودفعهم للخروج على شروط المعاهدين ، فضلا عن عدم رضائهم عن الشروط التي فرضت عليهم ، فمثلا تطرف حاكما تراقياو هما: ليبكنيوس وماكسيموس (Lupicinius & Maximus) واستغلا حاجة القوط للمواد الغذائية إذ وجدوا في محنتهم فرصة للإثراء ، فاحتكرا شراء هذه المواد من المنتجين بأرخص الأسعار وبأجهاها للقوط بأثمان خيالية ، لدرجة أن كان القوطى يدفع ، كمن لرغيف الخبز الواحد ، عبدا من عبده أو عشرة أرتال من الفضة نظير الحصول على ماشية للذبح ، وغالبا ما أجبر القوط على أكل لحوم الكلاب (٢) .

لم يحتمل القوط الصبر على هذا الوضع . فقررروا الخروج على الرومان والثورة على فالنس (٣) ، وربما كان ذلك بتشجيع من الهون الذين حرضوهم (٤) ، ولم يكن القوط بحاجة كبيرة إلى من يثيرهم ، فسرعان ما عبروا جبال البلقان عام ٣٧٧ م ودخلوا تراقيا ومقدونيا فهرب قائد الحامية لبيكنيوس - سالف الذكر - ولجا إلى مدينة مارقيان قرب فارنا ، وحيث قد قرر فالنس مغادرة آسيا الصغرى ، وعاد في صيف عام ٣٧٨ إلى عاصمته حيث قوبل اسوأ استقبال بسبب تلك الغلظة الشائنة . ولذلك

(١) Pirenne, (H.), p. 26 ; Lot, pp. 58-59 ; Byre, p. 24. Bradley, pp. 65, 67 ; Deanesly, p. 26.

(٢) Hodgkin, I, pp. 254 - 56 ; Bradley, pp. 67 - 68.

(٣) Moss, pp. 44 - 5.

(٤) Deanesly p. 26.

عول على إصلاح ما أفسد ، وأن يقوم بنفسه على رأس جيش لمهاجمة القوط ، وزاد في حماسه أن الناس أخذوا يعيرونه بفعلته ويقارنون موقفه المتخاذل من موقف زميله في الغرب وهو جراتيان بن أخيه فالنتيان الذى أدرك خطورة الحال وعمل على متابعة نشاط أيه ومشاريعه الحربية فهزم الجرمان عند الراين ثم هبط إلى الدنواب لينقذ البلقان من خطر القوط ، ووصل فى تقدمه إلى سرميوم عاصمة الليريا فى صربيا^(١) ، أما فالنس فقد أسرع ووصل إلى أدرنة وقاد الجيش الذى يعسكر حول أسوار هذه المدينة ، وبينما هو فى مجلسه الحربى مع قواده يناقش الخطط جاءه رتشومر (Richomer) أحد قواد جراتيان موفدا من قبل سيده ليطلب إلى فالنس التريث حتى يصل جراتيان بجيشه ، غير أن المتملقين من قصار النظر ، ألقوا فى روع فالنس ألا يتيح الفرصة لتقسيمه الغربى فى أن يشاركه مجد الانتصار على القوط ، والرأى عندهم أن يبادر بالدخول فى المعركة والانتهاه منها قبل وصول جراتيان ، ولم يرق هذا الرأى فى نظر أعظم قواد الإمبراطورية سباستيان (Sebastien) قائد المشاة فى الجيش الرومانى ، كما فنده فيكتور (Victor) السارماتى^(٢) قائد الفرسان . وحينئذ وصل قسيس مسيحي - يشك فى أنه أوليفلاس - فى وفد من القوط من قبل فريتجرن ، جاء وعرض على فالنس المفاوضة فى الصلح بشرط اعتراف الامبراطور بامتلاك القوط لتراقيا ، وهذه هى الرسالة الرسمية ، التى لا بد وأن تكون قد صدرت بموافقة القوط ، وهناك رسالة خاصة سرية ، أبلغها القس إلى الإمبراطور ومؤداها أن فريتجرن يخشى ألا يحافظ القوط على ولائهم للرومان إذا ما أجيوا إلى طلبهم فى يسر ، ولذا فهو ينصح الإمبراطور بأن يتظاهر بالقوة حتى لا تبدو سرعة موافقته دليل ضعف أو خور ولكن الرسل عادوا من غير إجابة .

(١) Lot, p. 61 ؛ Perroy, p. 11 ؛ Deanesly p. 26

(٢) Lot, p. 61 انظر ما سبق ص ١١ حاشية رقم ٢ .

وفي صباح ٩ أغسطس من عام ٣٧٨ م أودع فالنس أمواله داخل أدرنة وخرج لايلوى على شيء معتزما مهاجمة القوط الذين يعسكرون على مقربة منه ، وكان جيشه مفككا لا تزيد عدته عن عشرة آلاف مقاتل ، وبعد مسيرة نحو ثمانية أميال تحت أشعة الشمس المحرقة لاحت له مطالع عربات القوط التي يتحصنون وراءها ، فرتب صفوف جيشه واسعرضه استعدادا للمعركة ، وفوجيء القوط بهذه المباغثة ، فصاحوا صيحة تصم الآذان وهم ينشدون نشيدهم الحربي ، كعادتهم لبث الشجاعة قبيل المعارك ، أما فريق القوط الشرقيين فلم يكن حتى ذلك الوقت قد وصل إلى أشقائه بعد ، إذ كان على بعد عدة أميال من ميدان المعركة ، بحثا عن النهب والسلب ، فأرسل إليهم فريتجرن يستدعيهم على عجل ، ولكي يعمل فريتجرن على تأجيل بدء المعركة حتى يصل أشقاؤه ، اصطنع الحيلة والدهاء ، وأرسل إلى الرومان يطلب إليهم الدخول في مفاوضات لتسليم القوط ، ونجحت الخديعة ووافق الرومان على أن يبعث القوط من قبلهم وفدا من كبار النبلاء القوط ، فأجاب فريتجرن بأنه يرغب في الحضور بنفسه بشرط أن يرسل الرومان بعض كبار الضباط إلى المعسكر القوطي كرهينه ، حينئذ فرح الرومان ، وبدأوا يتناقشون فيمن يقع عليه الاختيار ، ولما وقع الاختيار على التريون إكويتيموس (Equitimus) رئيس حرس القصر وقريب الامبراطور ، أبي وأصر على عدم القيام بهذه المهمة المخفوفة بالمخاطر ، وحثه في ذلك أنه وقع مرة أسيرا في يد البرابرة واستطاع الهروب منهم لكنه لا يدري ما يفعل به لو عاد إليهم ثانيا ، وحسم النزاع حين تقدم رتشومر رسول جراتيان ، وتطوع لهذه المهمة . وخلال هذه المناقشات الطويلة ، كان الجنود الرومان قد أخذ التعب منهم كل مأخذ ، لوقوفهم تحت أشعة الشمس لمدة طويلة ، حتى أصابهم الجوع والظما ، بينما القوط في معسكراتهم .

وبينما كان رتشومر في طريقه إلى المعسكر القوطي استدعى ثانيا إذ لم تعد هناك حاجة لذهابه ، لأن المعركة قد بدأت فعلا إذ حدث أن فرقة الرماة

الأيبيريه المتضمنة للجيش الرومانى^(١) . قد سُميت . طول الانتظار ققامت بهجوم على العدو من غير انتظار أمر الإمبراطور فأبليت عن آخرها . وفى ذلك الوقت وصلت فرق الفرسان من القوط الشرقيين . فأمر فريتجرن . بندق الطبول إيدانا بالمعركة ، وحمل القوط حملة عذيفة ، شهبها : بعض المعاصرين بالصاعقة ، فشتتوا شمل فرسان الرومان ، وأحاطوا بالرجال . وضيقوا عليهم بحيث لم يستطيعوا استخدام أسلحتهم لشدة التصاقهم ببعض ، فذهبوا بالآلاف . وقتل الإمبراطور ، وظلت المذابح قائمة فى الجيش الرومانى ولم يوقفها إلا ظلام الليل ، وبقى القوط فى ميدان المعركة لعدة أيام . بعد انتهاء المعركة وهم ينهبون الموتى دون أن يجرؤ أحد من الرومان . على التقدم للبحث عن جثة الامبراطور^(٢) .

تلك هى كارثة أدرنة وتعد فى تاريخ الكوارث المدمرة التى حلت بالامبراطورية الرومانية . الثانية بعد دبر وجه ، وإن كانت فظاعة أدرنة تفوقها ، فقد خسر الرومان ثلثى الجيش وصفوة القادة من مختلف الرتب أمثال سباستيان . وتراجان وأ . كويتوس . وفالريان ، و ٣٥ آخرين من رتبة . الكولونيل أو التريون .

أردف القوط بعد هذه الواقعة بالتقدم نحو القسطنطينية وهاجموها بعنف وكأذوا يقتحمونها لولا ظهور فرقة من الفرسان العرب ، كانت تعمل فى الجيش الرومانى . قامت هذه الفرقة العربية بهجوم خاطف مضاد زلزل مواقع أقدامهم .

(١) : الأيبيريون (Iberians) سكان مقاطعة أيبيريا الاسبوية بين البحر الأسود وبحر قزوين ، ويحتمل أن هذه المنطقة كانت تابعة للفرس ثم أخضعها الرومان (أومان : الإمبراطورية البيزنطية ترجمة الدكتور طه بدر حاشية رقم ١ ص ١٩٠ ؛ Gibbon, III, p. 404) .

(٢) : (Lav. et Ramb., 'Bradley, pp. 71-74' ; Pirenne (H.) p. 27 ؛ Encycl. Britt. ' Courcelle, p. 11 ' Lot, pp. 60-61 ' I, p. 61 ؛ Hodkin, pp. 271

وألقى الرعب والفرع في قلوبهم . وبما أفزع القوط ذلك المنظر الذي هالهم ،
 إذ رأوا أحد فرسان العرب وهو ينقض على فريسته من قتل من القوط ،
 وأخذ يشرب دمه ، فأيقن القوط أن القتال مع مثل هؤلاء ضرب من التهور
 والحق . ومن ثم عارت قواهم فتراجعوا ورفعوا الحصار عن العاصمة وعادوا
 محملين بما نهبوا ، وأجاب الرومان على هذه الكارثة خلال السنتين اللتين
 تلتا الواقعة ، بإقامة مذبحه شنعاء في أبناء القوط من الشبان كان الرومان
 قد أخذوهم رهينة ، عند السماح للقوط بعبور الدانوب ، وكان هؤلاء الشبان
 يقيمون في ولايات آسيا الصغرى ، أبدى الشبان القوط نوعا من التبرم والتمرد
 على سادتهم من الرومان على أثر وقعة أدرنة ، فأصدر يوليوس (Julius)
 وزير الحرب الروماني ، وهو الذي تولى أمر الامبراطورية غداة مقتل
 فالس وقبيل انتخاب خلفه ، أصدر أمره إلى حكام آسيا الصغرى بتفويض
 من السناتوا ، بأن يستدرج هؤلاء الرهائن إلى المدن حيث يحاط بهم
 في الأسواق العامة ويذبحون عن آخرهم : ونفذت هذه الجريمة البشعة التي
 أساءت إلى سمعة الرومان مهما كان الدافع^(١) عليها ، ومهما يكن من أمر
 الإنتقام الروماني ، فإن كارثة أدرنة بلغت من الفظاعة ما حمل المؤرخ اللاتيني
 المتأخر (Ammianus Marcellinus) على أن يمسك عن ذكر تفاصيلها ،
 فجاءت أنباؤه عنها غامضة مبهمه ، وهي وقفة حسرة وألم تشبه تلك التي وقفها
 من بعده المؤرخ الإسلامي ابن الأثير حين أزال المغول دولة خوارزم شاه
 عام ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) .

أما المؤرخ الإنجليزي جيبون (Gibbon) فقد كان أحد الأوائل
 الذين لمحا في وقعة أدرنة عام ٣٧٨ م ، نقطة تحول هامة في التاريخ ، على
 حين كتب المؤرخ (الفرنسي) فيكتور ديري (V. Dury) في تاريخه عن
 الرومان عند حديثه عن هذه الواقعة : « لم يبق شيء من روما ، لقد اختفت
 عقائدها ونظمها المدنية والحربية ، وكذا فنونها وآدابها ، وبدأ الغزو

(١) Bradley, pp. 76-9.

والقهر ، ووصل فريتجرن حتى أسوار القسطنطينية ، وبعد سنوات قلائل استولى الأريك على روما^(١) ،

كان لهذه المأساة أثرها البالغ في تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية وفي مدنيها بوجه خاص وفي تاريخ البرابرة ومستقبلهم بوجه عام ، ولو كان القوط يجيدون فن استغلال الفتوح والنصر ، لاستطاعوا بهذه الواقعة أن يطووا صفحة الإمبراطور الشرقية قبل أختها الغربية ، غير أنهم فشلوا في الاستفادة من هذا النصر الساحق .

هذا وتعتبر كارثة أدرنة نكبة حربية ، إذ لم يستطع الرومان بعدها أن يحشدوا جيشا قويا يمكن الاعتماد عليه في قهر البرابرة ، وتعتبر من جانب آخر بداية جديّة لفترة الصراع والحروب التي تلاحقت بعد ذلك وملاّت تاريخ العصور الوسطى ، وتميزت بالعنف ، كما أضحت الفرسان الثقيلة العامل الحاسم في تلك الحروب ، وتلك حقيقة واقعة ظلت قائمة حتى القرن الرابع عشر الميلادي^(٢) .

* * *

بمقتل فالنس في أدرنة ، أضحى جراتيان حاكم الغرب ، الإمبراطور الوحيد على الرومان ، غير أن الأمور قد جرت منذ نحو قرن على أن الإمبراطورية لا يمكن إدارتها بواسطة إمبراطور واحد ، فاضطر لاختيار قسيم له في السلطة وأجبر على أن يكون هذا القسيم هو القائد الروماني والأسباني المولد تيودسيوس ، ولعل تردد جراتيان في اختيار تيودسيوس قسيما له ، يرجع إلى أن أبا تيودسيوس وسميه ، كان قد اشتهر أمره ونبه ذكره كحاكم في بريطانيا وأفريقية ، فرأى جراتيان فيه منافسا خطيرا في مطلع حكمه فتخلص منه بأن أجبره على الانتحار ، وبمجرد وقوع كارثة

Lot, P. 61. (١)

Moss, p. 45. (٢)

أدرنة قام حزب ينادى بتولية تيودسيوس الابن ، فتم اختياره وأعلن أغسطس في سيرميوم في ١٩ يناير ٣٧٩ م^(١) .

ومن حسن طالع الإمبراطورية الرومانية أن كان تيودسيوس هو خليفة فالنس ، إذ يختلف في مشاعره عن يوليوس وزير الحرب الذي دبر الأمور قبل انتخاب تيودسيوس .

رأى تيودسيوس أن يعيد شيئا من سمعة الإمبراطورية الحربية قبل أن يدخل في مفاوضة مع القوط ، حتى يلقي عليهم درسا يجعلهم يعترفون بأن الإمبراطورية لم تمت ، وأنه لم يزل يخشى بأسها ، فأسرع بإعادة تنظيم جيشه وإعادة الروح المعنوية له ، وذلك في الوقت الذي كانت همة القوط فيه قد ثبطت ، وتفككت وحدتهم بسبب النزاع الذي دب بين صفوفهم ، ومغادرة بعض القوط وانضمام هذا البعض إلى الرومان ، فكما شعر أحد من كبار القوط ، بإهانة تلحقه من قبل فريتجرن ، فارقه وانضم إلى الرومان ، وتيودسيوس خلال ذلك يرحب بهم ويغلق عليهم الجوازات والمناصب . من هؤلاء القائد القوطي المظفر مرداهاري (Modahari) الذي عين قائدا في الجيش الروماني وإليه يرجع الفضل في إحراز أعظم انتصار^(٢) ظفرت به الإمبراطورية في تاريخ وقائعها الحربية .

مات فريتجرن خلال عام ٣٧٩ م أو ٣٨٠ م ، وبعد وفاته ظهر أثاناربك مرة أخرى وعبر الدانوب ، ولسنا ندرى كيف استجاز لنفسه أن يحث في يمينه الذي أقسم بعدم عبور الدانوب ، لكن يرجح

(١) Lot, p. 62.

(٢) الإشارة هنا إلى الانتصارات التي ظفرت بها الإمبراطور تيودسيوس عام ٣٧٩ على شراذم القوط الغربيين الذين تغرقوا يخبون وينهبون في مدن ترايا عقب والمة أدرنة . وموداهاري هذا سليل ملوك القوط ، والغريب أنه على المذهب الأرثوذكسي على خلاف بقية القوط ، خدم الإمبراطورية وأخلص لها (Bradley, pp. 79 - 80, Hodgkin, 1, pp. 301 - 303.

أن اعترف أغلب القوط بزعامته هو الذى دفعه إلى ذلك ، ولا سيما بعد وفاة فريتجرن .

وأول عمل قام به هو الاتفاق مع الرومان ، فدخل فى مفاوضة مع الإمبراطور تيودسيوس الذى دعاه إلى القسطنطينية ، فتوجه إلى العاصمة حيث استقبل بحفاوة ، وهناك أخذت مظاهر العاصمة ومباهجها بلبه ، حتى قال أنه كثيرا ما سمع بعظمة القسطنطينية لكنه لم يكن باستطاعته أن يتصور أو يصدق إلا بعد أن شهدها بنفسه ، وأن الإمبراطور آله يمشى على الأرض ، ومن يجرؤ على الخروج عليه فهو مذنب جزاؤه الإعدام . ولم تطل إقامة أثاناريك بالعاصمة فقد مات فى يناير عام ٣٨١ م^(١) .

وانتهت المفاوضة بعقد معاهدة فى أكتوبر عام ٣٨٢ م بمقتضاها أقرت الإمبراطورية القوط على الإقامة فى منطقتى مؤيسيا وتراقيا بوصفهم معاهدين (Foederati) بالإضافة إلى منطقة بانونيا^(٢) التى تنازلت عنها الإمبراطورية لهم قبل ذلك بعامين^(٣) .

وبعد وفاة أثاناريك بخمس سنوات عادت فرقة القوط الشرقيين التى كانت بقيادة سافرا كس وألاثيوس ، ولكنها الآن بقيادة زعيم جديد هو أوداثيوس (Audathaeus) .

عادت هذه الفرقة إلى منطقة دا كيا بعد أن قامت بأعمال النهب شمالى ألمانيا وغربها ، وحاولت عبور الدانوت للدخول فى تراقيا ، غير أن الرومان هجموا عليهم أثناء عبورهم وشتتهم قتلًا وتعريقًا ، ومن نجح فى الإفلات والعبور إلى الشاطئ الآخر سلم للرومان ، وبذلك صارت

(١) Lot, P. 61 ' Hodgkin, I, pp. 308 - 309 ' Bradley, P. 80

(٢) تقع هذه المنطقة شرق فينا وشمال بلغراد الحالية .

(٣) Lot, p. 62.

سلطة الإمبراطور تيودسيوس مبسطة على جميع العناصر القوطية المقيمة داخل الإمبراطورية^(١) .

أدرك تيودسيوس أن سياسة اللين والمروادة أجدى على الإمبراطورية من سياسة العنف والقوة ، إذ وضح أمامه أن القوط الذين دخلوا الإمبراطورية بأعدادهم الكشيفة لم يتراجعوا قط . فلم ير بأسا من إعطاء القوط الشرقيين منطقة فريجيا ليقيموا فيها بآسيا الصغرى كما أقر أشقاءهم الغربيين من قبل على الإقامة في البلاد التي استقروا فيها ؛ وسمح لهم بحكم أنفسهم وفق قوانينهم الخاصة وأن يكون لهم جيش قائم بذاته ومنفصل عن الجيش الروماني له قيادته الوطنية تحت اسم « حلفاء » ، وفضلا عن ذلك فقد أعقد عليهم الرواتب الضخمة وعين بعض نبلائهم في المناصب العليا^(٢) ومثل هذا الوضع الذي آل إليه أمر القوط الغربيين وبعض الشرقيين ، يختلف عن غيرهم من القبائل الجرمانية التي تغلغت في أراضي الإمبراطورية الرومانية مثل عنصرى الشامانيين ، والهاثوريين (*Chamaves & Hauttuariens*) وهذان العنصران من فروع الفرنجة . استقرت هذه القبائل وآثرت الاندماج في المجتمع الروماني حيث تفرغت لزراعة الأرض التي حصلت عليها ، كما خضعت للقوانين الرومانية واستعملت اللغة اللاتينية الدارجة^(٣) .

وظل القوط على عهدهم وولائهم للإمبراطورية خلال عهد تيودسيوس ، رغم وجود بعض التذمر بينهم ، ولكن المحقق أنه طالما كان تيودسيوس على قيد الحياة فإن القوط ظلوا على الطاعة أو ما يقرب منها ، كما أنهم ساعدوه في حروبه التي انتصر فيها على منافسيه في الغرب ما كسيموس

(١) Hodgkin, I, pp. 320 - 323.

(٢) Hodgkin, I, pp. 311 - 313 ؛ Lot, p. 81.

(٣) Lot p. 63.

وإيوجين . ومن أبرز قواده من القوط الغربيين جايناس (Gaïnas)
والأريك ، وعرف عن ثيودسيوس إنه كان شديد الحرص على موادعه
القوط حتى أنه اتقم لمقتل بوثيريك (Bothéric) الضابط القوطي بأن أقام
مذبحة في أهل تسالونيكما بما حمل القديس أمبروز (Ampros) في ميلان
على أن يحرم الإمبراطور من الكنيسة إزاء هذه الفعلة الشنعاء ولم يظفر
الإمبراطور بالعضو إلا بعد اعتذار .

وربما ظل القوط على ولائهم وموادعتهم للإمبراطورية لو كان خلفاء
ثيودسيوس يمثل سعة أفقه وشجاعته وكياسته ولو لم يكن وزراءهم
ومستشاروهم قصيرى النظر تغلب عليه الأناية والجماعة .

ابراهيم على طرمان